مقولات الحياة

بقلم مطاع صفدي

[الى شرقنا العربي الذي يستفيق على رعشة الحياة الجديدة في كيانه]

ان اللحظة التي التقى فيها الانسان بنفسه هي بداية زمان مجدت فيه الابعاد الواقعية التي انسربت من النقطة التي يقف فيها هذا الكائن الصغير الذي جهز بحواس لا ترمي بادراكه الى أبعد من مكانه إلا بقليل . ولكن خياله يتخطى آفاق هذا المكان . ولكن عقله يريد ايضاً الا يكتفي بحيز جسمه . فما هو هذا الحيز بالنسبة لمطلق المكان ؟. ومن هو إذن في العالم ؟

قبل تلك اللحظة ، شغل الانسان بعقله ، ونسي أنه كائن حي . فهو في كل افق ، وليس في افقه ، في الفراغ المحيط به ، وليس في الملأ الذي يرتكز عليه في تراب ارضه . كان السؤال : من اين انا ؟. ثم اصبح : ما هي الحياة ؟ وأخيراً اضاف الى هذا السؤال مشكلته الحقيقية لأول مرة حينما أضاف ضمير المتكلم فكان السؤال المشروع : ما هي حياتي ، اي كيف اعيش ؟. والسؤال لا يتطلب الفكر بقدر ما يرتكز الى المعاناة العميقة التي توحد بين السؤال وصاحبه ، وتجعل الجواب ينبت في دمه وحرارته ولحمه ، دموياً حاراً ، من خلال التجربة الواقعية . وإذا كانت التجربة فردية في أصلها ، فان معنى فرديتها ينحل الى ثلاث نقاط هي انها تضم كثرات ، ووحدات ، وعدم وجود . هذه الحدود الثلاثة تدخل في صراع داخلي جدلي هو الذي يعطي الانسان في التجربة حدة مشكلته[1] . وبالتالي تجعله هذه الحدة يتأجج بما فيه من قدرة على الحياة .

غير أن هذه الفردية يمكن ان ينظر اليها من خلال العصر . إذ لم تكن التجربة لتأخذ حدودها جيداً إلا من خلال التاريخ . وكما يقول هيغل : إن الحضارة الشرقية القديمة اقامت سلطان ما وراء الطبيعة على الطبيعة وكان الانسان فيها عبداً كله في المجتمع الكل ، بمقابل حرية فرد واحد هو الامبراطور ممثل الاله على الارض . وكانت الحضارة اليونانية نقيضاً مباشراً للشرق ، إذ حصرت قيمها في الانسان وحده . وإذا فحصنا الأمر أكثر من خلال المنطق الهيغلي نفسه ، رأينا ان اليونان نفسها لم تكتشف الانسان حقاً . اذ لم تكن تعرف معنى التجربة القائم على هذا الصراع الداخلي . إن اليونان حضارة هادئة تبحث عن الانسجام ، وإذا كانت حضارة إنسان . فهي لم تكن حضارة إنسان يعرف ما هو ، لأنه لم يكن يعرف ما هو نقيضه . فالالهة اليونانية نوع من البشر ؛ وسلوكهم بشري مشوه قليلاً . لأنه ينقصه النهاية ، أي الموت الذي يمتاز به الانسان على الآلهة . والميثولوجيا اليونانية تنتهي فيها كل اسطورة بالصراع الى الانسجام . فالصراع فيها مرحلة موقتة جداً . وهو صراع في اكثر منه دموياً . لم يكن يقابل الانسان اليوناني اي طرف آخر . فليس هناك مطلق . إذ ان المطلق محصور ضمن مفهوم المتناهي ، وهو طبيعة العالم المغلقة ضمن كرة حبس فيها اليوناني مع آلهته .

وقد اشار « شلينغ » الى اهمية دراسة الميثولوجيا اليونانية وألمح فيها الى أن طبيعة الآلهة اليونان كانت محايثة واقعية لم تكن تخرج مطلقاً عن حدود عالم الانسان .

وامتازت العصور الحديثة بالكشف عن الانسان الحقيقي ، إذ حددت صراعه بين النقيضين ، الخالق والمخلوق ، المطلق والمحدود . وكان لا بد من ان يعلن هذا الصراع مكشوفاً ، فكان نيتشه ، وهو نفسه كان ضحية تجربته . غير ان حدة هذا الصراع ، كان مصدرها ان الصراع لم يكن يخرج عن ذاتية الانسان ، حتى تضاءل العالم كله في مسرح فرديته . فكان النقيض يتحول شيئاً فشيئاً من معنى الاله الى معنى الشيطان . والشيطان هنا هو كل ما ليس بانساني . وما ليس بانساني اللانهاية ومقولاتها : المجهول والخلود والليل الصامت .

ويحدد « ستيفان زفايج » معنى هذا الشيطان من خلال تجربة ثلاثة ابطال في الصراع ، وهم كليست وهولدرلين ونيتشه ، في كتابه « الصراع مع الشيطان » . فيقول في مقدمة الكتاب « إننا نسمي بالشيطان الاضطراب القديم الملازم لكل إنسان ، الذي يجعله يخرج عن ذاته ويقذف بنفسه في اللانهائي ، في البديء ، كما لو ان الطبيعة كانت قد تركت في غدر نفوسنا قليلاً من سد يميتها (Chaos) القديمة ليس بطاقتنا مدافعته ، فينزع راغباً الى العودة ثانية الى ما هو فوق الانساني والطبيعي . » (ص ٣) .

أراد نيتشه ان يكشف عن الحياة بكشف سوالبها ، فدخل معبد الأصنام ، وهناك أخذ فأساً من حديد ليحطم بها اصناماً من حجر . هذا هو صنم النظام ، يقوم على قاعدة الاستقرار ، ويكسوه ثوب من عنكبوت الماضي . فليفسح الطريق إذن للجريء الذي يخطو فيبدع نظاماً ، ويخطو ثانية فيحطم نظام ، لانه ليس في طريق الجريء الا الصعود ، والصعود لا

« اذا كان لنا نحن الادباء العرب من مذهب أعم من كل مذهب ، فهو مذهب الحياة بكل خصبه وعنفه . واذا كانت حياتنا فقيرة فأدبنا سيغني حياتنا ذاتها ، شرط ان ينبثق عن حاجة الانسان للاخلاص الى وجوده الارضي ضمن اوضاعه الخاصة . »

[1] Obstacle et valeur. R. Le Senne.

يكون الا اذا خضعت كل عالية لما هو أعلى منها . تلك هي شريعة الذرى .

وصنم يُمجّد الأبدية اذ جفّت منه الحياة فتاق الى الموت الدائم . وصنم يمثل حكومة القطيع التي تخشى الفرد لانها تخشى البطولة . وصنم يمثل التجار وهم نساك بخلوا على الدنيا بحياتهم فحرمتهم الدنيا لذة الالم النبيل . فتاجروا بالجسد في سبيل الروح . وتاجروا بالارض في سبيل الفضاء .

وهذا صنم الكذابين . وهم الذين تصنعوا جلال الحقيقة فعبسوا وطالت لحاهم . وتقذروا قذارة الجيفة المحنطة جيداً . وهذا صنم الاخلاقيين وهم عتيقون لانهم صالحون يفعلون الفضيلة العتيقة . ولم يعرفوا بعد معنى ان يكون الانسان مبدأ اخلاقه ، وان يكون كل عمل جديد شريعة لا يستطيع ان يقلدها احد سواه .

ان الحياة عند نيتشه اثقل من ان يحملها قميء فضولي على ارض البطولات . وارض البطولات هي التي تصطبغ بالدم والنور ، والتي تتغذى بألم المخاض دائماً ، عن كل عظيم يلد عظمته ثم تتخلى عنه هذه العظمة ليلد غيرها . ولهذا قرن معنى الحياة بالبطولة . وليس كل حي إذن حياً الا عندما يصبح بطل مصيره . وما من انسان مثل نيتشه فجّر مصيره من قلبه ، وعمّق قبره بمخالبه مثلما صفع الاجواء بجناحه .

فكانت على يد نيتشه ثورة عنيفة لاجل الحياة ضد السكون والخلود والموت البطيء . وكان على عاتق غيره من المفكرين بعده ان يتحدثوا عن الحياة بصبر اكثر وبحمى اقل تأججاً . فبرزت جميع مقولات الحياة تباعاً في انتاج البطولات الحديثة .

فجاء الفيلسوف الشاعر «جان ماري غويو» يبشر الانسان بانه ينبوع طاقة لا يعمل البذل فيها إلا انماء وإغناء ، ولا يؤثر فيها الفيض الا تعميقاً لها وتفجيراً . واذا كان أبيقور رجلاً شحيحاً بالحياة فلأنه لم يكن حياً . فالعمل ، والعمل غير المعقول ، هو الذي يجعل الانسان اعظم من نفسه دائماً .

لقد رأى غويو في ابيقور (في كتابه عن فلسفته) انساناً يطمح الى اللذة شرط ألا يألم من اجلها . ولكن غويو يريد من الانسان ان تحدد آلامه لذاته . بل ان مثل هذا القياس غير موجود البتة لديه . ان القيمة لا تسبق العمل ولكن العمل هو الذي يخلقها . ولهذا فكل ما يساعد على العمل ، على الابداع في العمل ، على البطولة في العمل ، يكون لذيذاً ومفرحاً . لان لذة الشمس ان تشرق أعظم اشراقها ، ولذة القلب ان يحب اقصى حبه . ولذة الحي ان يحيا اعظم حياة ليموت أعظم موت . فالمغامرة بسعادة الانسان هي شرط السعادة . وتجاوز الاخلاق هو الاخلاق ان مقياس الفضيلة والرذيلة يكون في نجاح الانسان بتحقيق انسانيته . وإنسانيته هي التي تجعله حياً عنيفاً جميلاً يعيش حياة عريضة ، كما عاش غويو عمره القصير العميق . فهل كانت قواعد السلوك اوسع من السلوك ؟ وهل كانت الاخلاق اشمل من الحياة .. كلا ! إن السيل هو الذي يحفر مجراه حسب قوته : فالاخلاق ليست حارس الانسان . والمسؤولية فيها مسألة تتبع قيمة الابداع في السلوك الذي لا يمكن تحديده ، لان قدرة الحياة غير محدودة . والجزاء فكرة تجعل الاخلاقي عبدَ واجب خارجي . فالانسان الحق — كما بين نيتشه — لا يتاجر مع احد بأعماله . إنه ارفع من ان تذله فكرة الخوف من العقاب او الطمع بثواب [1] . وهكذا تصبح الاخلاق في الحياة الاعنف .

وأما الحقيقة فهي في ذرى الشعور . والانسان الشاعر هو الذي يبتكر الحقيقة ، والفيلسوف هو الذي يعطيها قيمتها . وأما العالم فهو شخص سخرته الحياة لخدمتها . فكل مكتشفات العلم عملت على زيادة إغراء الحياة . غير ان الحقيقة المطلوبة ليست هي الحقيقة النافعة ، أي تلك الحقيقة التي يستخدمها العالم لمنفعة حضارة المجتمعات ، بل هي الحقيقة التي تدفع الانسان لان يبذل أقصى حياته في سبيلها . ومن هنا كانت الحقائق كثيرة كثرة الافراد . ولكنها واحدة ضمن نموها المتكثر في الافراد ، لانها كلها تعمل مع الحياة . والحياة واحدة . فهي فرح وابداع ، وفرح بالابداع . وتكاد كل قصيدة في ديوان غويو (أشعار فيلسوف) تقيم رابطة جديدة بين الانسان وجمال الحياة ، حتى لكأن الشعر ليس مهمته فقط التحدث عن مباهج الوجود ، بل انه يسعى لخلق مباهج جديدة فيه ، بقدر ما يكون كل بيت فيه عرقاً نابضاً بالحياة . فكل قصيد حي جديد يولد .

وبلغة الشعر الخالصة كانت الكونتيس دو نواي تحصر معنى الجمال في كل ما يعبر عن الحياة الصادقة المبدعة . وفي الطبيعة ، عند هذه الشاعرة تتحد حياة الانسان

---

١ كتاب الاخلاق بلا إلزام ولا جزاء — تعريب سامي الدروبي .

بحياة المياه المتدفقة والاشجار والاعشاب والصحارى الواسعة والبحار المشرقة بالحركة الدائمة . استمع اليها كيف ولدت في الحياة فولدت الطبيعة فيها ومعها :

أفكر احياناً ببدايتي ، لقد بزغ لازورد السماء، ومن قبل كنت أحيا بقلب ناعم ، مبعثرة في الفجر ، أنا كالزمان ، جبلت حياتي ، من مادة العالم ، كنت قبل مصر الفسيحة ، وقبل اليونان ، في الأيام الأولى للوجه، ولدت على الماء في صباح مشرق ، تحت الزبد المشع ، عندما كان العالم بركاناً مليئاً بالحمم ، ولازوردا غضاً يصعد منه الدخان ، وأذكر هذا الصباح عندما أتت ، على شفاهي الندية ، حطت الى الأبد الأنشودة الالهية ، بجناحيها المنتشرين١ .

ذاك هو الحب المشرب بمجد الالم من اجل اعنف انبثاقة تنتج انساناً من طينة الارض . وقديماً قال احدهم انه يحيا لكي تكون لديه اعظم ذرة .

***

كانت الحياة اذن بحاجة الى من هو مثل نيتشه كي يحطم قيودها ، ويحررها من مفاهيم الجمود والاستقرار والخلود . فهذا هو نبيه زارا يبشر بالانحان الحي المتفوق ، بآيات فيها عنف المخاض عن هذا الانسان . وقد كانت القسوة والمرارة لهجة هذا النبي . لان السعادة التي يحلم بها إنسان الارض يعارضها نوع من الشوق المجنون الى ان يخضع الانسان الكون لمعرفته . هناك إذن صراع جبار بين سيد الارض والمجهول في العالم الذي يعارض هذه السيادة ما دام ليس مفهوماً .

وإذ استقر مذهب الحياة في الفكر الانساني وهدأت المعركة قليلاً ، أصبح بامكان هذه الشاعرة ، شاعرة الانوثة الحية ، أن تتغنى بمقولات الجمال الحار ، وكان لها في انوثتها وأنوثة الطبيعة حولها ينبوع ثر ، لابداع الرشاقة الوجدانية وهي في تناغمها الخفي مع رجولة المجهول .. في زواج جنسي عنيف برموزه في الارض . البركان ، البحر ، البلاد الواسعة الغامضة ، الرياح المزمجرة ، المعابد القديمة المخيفة ...

ديوان هذه الشاعرة سمفونية ريفية طويلة لا نرى فيه احلى من الحب ومن الامتزاج بكل ما هو متدفق بالحياة في الفجر ، والبراري السحراء ، والعاطفة المبهمة الجياشة التي تريد ان تحب أكثر من الحب ، أن تشمل بذاتها كل ما هو واسع رائع يعانق الآفاق .

ولقد اكتشفت الطبيعة اكتشافاً جديداً من وجهة نظر جديدة ، وهي ان روائع الطبيعة لا تشكل فيما بينها انسجاماً ، وبالتالي ليس مقياسها الجديقة الهندسية كما في الفن الكلاسيكي ؛ بل هي في هذه النظرة الهمجية ، وبمقدار ما ترعش بالحركة والجدة والطرفة والحرارة ؛ وذلك من خلال روح هذه الانثى العنيفة الانوثة ، القاسية الحب ، الرائعة الجمال في حيويتها وفي طريقة مبادرتها للحياة الفنية المبدعة .

غير ان الانسان في عرومة هذا الاتجاه انحرف مع الحياة الخارجية في الطبيعة والاشياء والتاريخ . وكان برغسون يحاول ان يجعل من الانسان أرقى وأعنف دفعة من ديمومة الحياة خلال تطوره المبدع . وما زال التيار يعمق حتى جاء من أراد ان يبرز ملكة الانسان من وجهة نظر الحياة . فكانت أنشودة الارض للموسيقار « ماهلر » .

ادرك هذا الموسيقي الفيلسوف ان الاصوات الانسانية اذا ما شاركت في التعبير الى جانب الآلات ، أبرزت العلاقة الرحمانية بين الانسان والارض . وفي هذه السمفونية الكبرى نشوة كبرى جاءت عن الايمان بالارض وما في الارض من لذة وغبطة ، من الم وقلق ، ما في هذه الارض من ليل وذرى جبال غامضة ، ورجل يفتح صدره لرياحها من اي جهة هبت عليه . الارض حيث الشمس المشرقة ، والزهور البرية في التراب . والطفل والمرأة والمشاق الدنيوية كلها .. ما اروعها من مشاق تفجر في القلب عظمة الشوق الى كل موجود له طبيعة القلب في الحركة والدفقان والخفقان الملحن بايقاع اللحم عندما يعيش ويأخذ كل تغييرات الانفعال .

الانفعال والفكر الاقرب الى نور الشمس منه الى ضوء الشموع المتسلسل في الظلام ، والكارثة المبدعة التي تؤزم وجدان الانسان في معاناته لتفاصيل الارض ... كل شيء في الارض متغير ، وكذلك الانسان عليها . وليس ما يحد الجزئيات ، فلكل حياة اذن كنزها ومجالها ان انتبهت الى مركزها من الارض .

لقد كان بيتهوفن اول من ادخل صوت الانسان الى جانب صوت الآلات في سمفونية الحرية . ولكنه لم يستعمل الانسان والآلات هنا إلا من وجهة كلية مجردة أرّخت لصراع الانسان ضد المصير . وأما (ماهلر) فقد أغنى الاوركسترا بآلات جديدة ذات ايحاءات خاصة جزئية جداً ، واستعمل من فن التأليف ما ينسجم مع خصب اللونيات في الارض ليأتي باجمل لوحة عما يحسه ساكن الارض تلقاء الف

١ Gomtesse M. de Noailles : Les Eblouissements.

لون والف صوت ، والف صورة .. كل شيء غير محدود ضمن حدوده . فليس اللانهائي الا في النهائي ذاته ، فلا حاجة للآفاق الا من خلال العيون التي تراها .

وكان أندريه جيد يقيم أكثر الرابطة بين الانسان و (أغذيته الارضية) . ورغم ان الارض وجدت لمسرة الانسان وموته ايضاً ، الا انه يجب ان نتعلم التلذذ بها . وليس من خلال الافكار التي تعلمناها . وان جيد – وهو في كتابه الاغذية الارضية زارا الجديد - يخاطب تلميذه (ناتانئيل) وينصحه اول نصيحة بان يسرح في الارض وان يهجر كل معلوماته عنها في رأسه لكي يبادرها على حقيقتها ويتذوقها غضة طريفة مفاجئة . وان الذي يعطي للارض قيمة اولية هو سيدها ، هذا الانسان المجهز بأروع الحواس التي تكشف له اسرار المتع الارضية (ليكن الاهتمام في نظرتك وليس في الاشياء المنظورة) .

والاشياء اللذيذة يجب ان يكون الانسان جزيئاً لكي يحبها . ولهذا فالانسان قبل الاخلاق (افعل دون ان تحكم فيما اذا كان الفعل فاضلاً او شريراً . أحبّ دون ان تقلق اذا كان ذلك خيراً او شراً .)

وعلى هذا فللحياة فنّ ، على الانسان ان يدركه خلال تجربته الارضية وحدها دون النظر الى سواها . تلك هي فرصة العمر ، وفيها يبذل الانسان كل رغباته على ان لا يترك للموت الا الجيفة الجافة من العظم والجلد ، واما اللحم والدم فليستهلكهما الحي قدر الامكان ، مع العلم ان كل رغبة تروى تغني صاحبها اكثر من ان تفقره . (انا لا أتمنى راحة اخرى غير هجعة الموت . واخشى ان تكون رغبة ما ، وكل طاقة لم اروها خلال حياتي ، للابقاء عليها ، لم تعذبني . **وآمل** بعد ان عانيت على هذه الارض كل ما كان ينتظر بي ، ورويته ، ان اموت **يائساً** تماماً) عندما لم تعد له رغبة ، على الاطلاق ، يأمل بها .

*

ويبقى اخيراً أن يتضح امر كان دائماً محقراً متضائلاً ، وهو جسد الانسان . الجسد الذي هو وجود الانسان المتحقق فعلاً في عالم المكان . ولقد لفت المفكر (مين دوبيران) النظر الى الجسد وحركاته باعتبارها المجال المشخص للوجود . ولكن الفيلسوف الوجودي (غابرييل مارسيل) هو الذي فلسف الجسد وجعله موضوعاً رئيسياً في فلسفته وفي كل فلسفة وجودية اخرى حتى تدارسه كل من هيدجر وسارتر وميرلوبونتي . على ان ملاحظات مارسيل هي النقاط الأساسية التي اعتمدها الفلاسفة الاخرون في بحثهم .

يصرح غابرييل مارسيل [1] بأن لكل فيلسوف مبدأ اساسياً يحمل منطقيته بذاته ، ينطلق منه في ابحاثه الفكرية . وهو يجعل من جسده نقطة انطلاق فلسفته . ولا يجد فيه من منطقية ضمنية ، اكثر من تحققه في عالم المكان . وللجسد شكلان من الوجود : أولاً باعتباره جسداً بالنسبة لشعور الآخرين ، وثانياً باعتباره جسدي ، او جسداً بالنسبة لشعوري . ومارسيل يعتقد ان التجسد لا يعني شيئاً اخر غير التحسس . والاحساس ليس مجرد رسالة رمزية (كما يعتقد علم النفس التقليدي) تنقل الموضوعات الحسية الخارجية للادراك على شكل رموز . بل ان الاحساس واسطة التعاطف بين الجسد وبين الاشياء الخارجية . فاذا حاولنا ان ننظر الى الجسد ، كما يفعل الاقدمون ، نظرتنا الى آلة مجردة عن الانفعال ، ثم حولنا هذا الجسد ، الى مجرد فكرة خالية من مضمونها الحي ، انبثقت امامنا مشكلة علاقة الجسد بالروح . غير ان هذه المشكلة فاسدة ، لأننا نعلم ان كل قيمة الجسد تنبثق عن كونه جسدي أنا ، أي انه يحمل كل ذاتيتي ، وبالتالي لا يمكنه أن يكون موضوعاً بالنسبة لي . اذ ان الاشياء الخارجية هي التي تكون موضوعات له ، أو بالاحرى لي . فاذا كنت انا جسدي (Je suis mon corps) فهذا من حيث انني كائن حي ... ومن حيث أن انتباهي يحمل عليه مبدئياً ، قبل ان انتبه الى اي موضوع خارجي آخر [2] . فجسدي إذن يتمتع بوجود قبلي مطلق : غير انني لا استطيع ان أكون جسدي إلا اذا امتنعت عن اعتباره آلة لموجود آخر غيره (كالروح مثلاً) . وكذلك فان فكري لا يمكن ان يتشارك مع غيره الا بواسطة الرموز . والرموز هي التي يصنعها جسدي ، وهو هذا التركيب الحي (ص ١٨٦) . فهناك علاقة دائمة بين ثلاثة حدود يسبغ عليها طابع الوحدة العميقة . وهو ان الانتباه دائماً هو انتباه الى شيء معين (ceci) خارجي . ولا يمكن الانتباه ان يقع إلا اذا كان من قبل انتباهاً للذات . فالذات المنتبهة تصبح جسداً ، والجسد يصبح « شيئاً خارجياً » وكل ذلك ضمن وحدة التعاطف بين الداخل والخارج . فالجسد بذلك لا ينفصل

١ G. Marcel : Du refus à l'invoquation. 1er. chap.

١ G. Marcel : Journal Métaphysique. p. 19.

٢ المصدر نفسه ص ٢٣٦

من منشورات دار المكشوف - بيروت

اشهر العشاق

سلسلة رواية وادب وتاريخ

١ – ايلوئيز وابيلار ، ٢ – باغانيني ساحر النساء ، ٣ – بودلير في حياته الغرامية ، ٤ – ميسالين الامبراطورة الوثنية ، ٥ – ليدي هاملتن سفيرة الحب ، ٦ – ديك الجن الحب المفترس ، ٧ – كاترين الروسية في احضان الحب ، ٨ – نابوليون وزوجته البولونية ، ٩ – اللورد بيرون عاشق نفسه ، ١٠ – بولين بورغيز الشهوة الجامحة ، ١١ – المرأة في حياة ادغار بو ، ١٢ – فاغنر والمرأة ، ١٣ – المركيزة دي بومبادور ، ١٤ – مضاجع نابوليون الثالث (جزءان)

طوني .. للجبناء!

« .. أدلى الجنرال (مايك وست) – قائد فرقة الكومنولث البريطاني في كوريا بحديث في التلفزيون – قال فيه: إنه كانت هناك عدة حالات تشتمل على الجبن في كوريا وأنه أجريت بشأنها محاكمات عسكرية. واستطرد قائلاً: انه ليس في الأمر ما يدعو إلى الدهشة فقد حوكم جنود كثيرون في الحربين العالميتين بتهمة الجبن !!.. وكان الحكم احياناً هو الاعدام رمياً بالرصاص .. »

. . . . . .
ولما كبرت أتوا ينتقون خراف الفداء
وساقوا القطيع إلى ساحة غطيت بالجليف
ذراع هناك .. وفخذ هنا ..
وشلو .. وساق .. ورسغ .. ودم
ألوف الجماجم
وقالوا :
« هنا قبلة الصالحين .. هنا المعبد
هنا تستجاب صلاة العبيد ..
وتؤتى الزكاه .. »
وفي ليلة جن عزريلها
وضج الفضاء بقصف الرعود
ودمدمت الريح تذرو الجنود
وثار الدخان
مضوا يقصبون وهم ينشدون
نشيد الدمار لرب الدمار ...
سمعت الرفيق بأذن الرفيق يثير السؤال:
« لماذا نموت ..؟
ومن اجل من ؟؟
ومن للعيال ؟؟؟ »
وجاء الرصاص .. فمات على شفتيه السؤال
وهاجت بخاطري الذكريات
وألقت إليّ مئات الصور
بلون الحداد
بلون الجلود التي سودتها سياط الهمج
ولفح الوهج
بلون السوائم في قريتي
يدقون ارض الشقاء العنيد
يبثون للارض حقد العبيد
بفأس حديد
وقد يعثرون .. وهم يحفرون
بجمجمة بي الثرى ساجده
وفي محجريها بقايا دموع
وهول .. وجوع
وفي عظمها بصمات النعال

عن النفس بل هو النفس متجسدة كما يقول بعد ذلك جان بول سارتر في كتابه (الوجود والعدم) .

ويلاحظ جان فال (في كتابه ، نحو المشخص ، ص ٢٣٩) ان كلاً من نظريتي الاحساس والجسد وجهان لظاهرة واحدة (فاذا لم يكن جسدي آلة ، فان الاحساس لا يمكنه ان يكون رسالة) وما هاتان النظريتان إلا مظهران لنظرية واحدة هي نظرية الوجود .

في الموجود إذن تتحقق وحدة النفس والجسد. وتجربة التجسد تقودالى وحدتين – كما يقول مارسيل – وحدة النفس والجسد، من جهة، ووحدة النفس وبقية العالم من جهة اخرى. وليس لنا ان نفهم من تحقق الموجود في الجسد أي نزعة مادية أو روحية ، فهنا المجال وجودي بحت : « انني حينما أقول انني جسدي فهو القول انني اكون هذا الاسلوب (الجسد) من الوجود ويمكن القول ايضاً ان جسدي هو اسلوبي في الوجود في العالم ، او في انتسابي اليه . » وبهذا نكون ، ولا بد ، قد تجاوزنا كل مشكلة فاسدة ، تريد ان تفصل بين الجسد والنفس ، لكي تحاول ثانية ان تجد بينهما روابطها المصطنعة ، كما فعل ديكارت مثلاً . فالتجربة التي يحق لنا ان نصفها بأنها تجربة اولية لن تكون أبداً تجربة الكوجيتو المفكر عند ديكارت . إذ ان الفكر لا يتقوم باعتبارة مدركاً إلا حينما يعتقد ان المحتوى ، من حيث انه مسلمة ، سابق على فعل الادراك نفسه . ففي لحظة تقوم النفس يكون تقوم الجسد .

***

ان كل هذه الابعاد الواقعية للحياة : الانسان ، العمل ، الارض ، الجسد ، تبقى غير ذات موضوع ان لم نلحظ أبعاداً مشخصة اخرى هي التحديد في الزمان والمكان والبيئة البشرية. وهذا ما يضمه مفهوم الوضع (Situation) عند سارتر . والاوضاع كثيرة كثرة الافراد، وبالتالي فان انعكاس الوضع مختلف المصادر من سياسة وقومية وثقافة وطبقية. فليس أحسن اذن من اسلوب الادب الروائي لكي يعبر عن هذه الاوضاع. وكل وضع يتكشف عند نقطة هي الفرد وينطلق الى ابعد افق اجتماعي وانساني وميتافيزيكي اخيراً. ولهذا كان عصرنا اليوم عصر الرواية . وكلما عظمت وتلونت تفاصيل الحياة كلما وجدت الرواية طريقها في التعبير . والادب الحق هو الادب الذي يلتزم الحياة بجميع مقولاتها التي ألمحنا اليها في هذه الدراسة الموجزة . واذا كان لنا نحن الادباء العرب من مذهب اعم من كل مذهب ، فهو مذهب الحياة بكل خصبه وعنفه . واذا كانت حياتنا فقيرة فأدبنا سيغني حياتنا ذاتها شرط ان ينبثق عن حاجة الانسان للاخلاص الى وجوده الأرضي ضمن اوضاعه الخاصة . فليس اعظم من الادب عندما يساعد الحياة على الانتشار ، والبطولة في الحياة .

دمشق

مطاع صفدي